


February 2020

جدليّة الوطن والانتماء وأثرها في المجتمع بين سعيد عقل وأحمد مطر

Samir Itani

Assistant Professor, Faculty of Human Sciences, Beirut Arab University, Lebanon, Beirut,
s.itani@bau.edu.lb

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.bau.edu.lb/schbjournal>

 Part of the [Architecture Commons](#), [Arts and Humanities Commons](#), [Education Commons](#), and the [Law Commons](#)

Recommended Citation

Itani, Samir (2020) "جدليّة الوطن والانتماء وأثرها في المجتمع بين سعيد عقل وأحمد مطر," *BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior*. Vol. 1: Iss. 2, Article 13.

DOI: <https://doi.org/10.54729/2789-8296.1033>

This Article is brought to you for free and open access by the BAU Journals at Digital Commons @ BAU. It has been accepted for inclusion in BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior by an authorized editor of Digital Commons @ BAU. For more information, please contact ibtihal@bau.edu.lb.

جدلية الوطن والانتماء وأثرها في المجتمع بين سعيد عقل وأحمد مطر

Abstract

The term Motherland wasn't used by the ancient Arab writers and poets, and even if it was mentioned it would mean the house or the residence, as for the concept of the motherland, as identified nowadays, it didn't exist in the era before Islam or the Middle ages, but it started emerging during the 19th century, when the national sense developed at the Arabs, and they were introduced to this concept by the western culture which invaded all the east. Among the models which the researcher poet "Said Akel" may study, a Lebanese whose thoughts match with those who attempt to build a motherland based upon the Lebanese nationalism, in which the building was a beautifying culture which doesn't relate to the reality at all, neither can change it. The second model is "Ahmad Matar" an Iraqi poet who sensed the failure of the national projects in the contemporary Arab world, in which his poetry was sarcastic and critic in this regards. Therefore, criticizing the belonging based upon the common interests in the social contract held between the citizen and the state without trying to change the cultural structure of the motherland. As for the problematic which this research tries to discuss: the relation between the development of the motherland concept and the sense of the belonging on one hand, and expressing this feeling literature wise and the extent of this literature prevalence in the community on the other hand, and its impact in the community. Through studying the poetry of each of "Said Akel" and "Ahmad Matar", the researcher must reach a conclusion linking the sense of progress, expressing the foundation, and the feeling of belonging to a motherland is still imaginary, and the sense of humiliation and the loss of the true motherland in the national, after having lost the belonging feeling throughout the failed Arab experiences in building the nations

الملخص: لم يجر مصطلح الوطن على ألسنة الأدباء والشعراء العرب قديمًا، وإن ذُكر فقد كان يعني المنزل أو مكان العيش، أمّا مفهوم الوطن - كما هو معروف اليوم - فلم يكن موجودًا في الجاهليّة أو في العصور الوسطى، وإثما بدأ ظهوره خلال القرن التاسع عشر عندما نما الحسّ القومي عند العرب، وعرفوا هذا المفهوم من الثقافة الغربيّة التي بدأت تغزو الشرق برمته. ومع تطوّر الأحداث السياسيّة والاقتصاديّة في العالم العربي، ومحاولات بناء الأوطان القوميّة على أساس الحدود القطريّة، واستشعار سقوط هذه التجارب لاحقًا، تطوّرت نظرات الشعراء إلى الوطن والانتماء، فجاءت نتاجاتهم الأدبيّة معبّرة عن هذه الأفكار. ومن النماذج التي يمكن أن يدرسها الباحث الشاعر "سعيد عقل" وهو لبناني يتماثل فكره مع الاتجاه الذي كان يحاول أن يبني وطنًا على أساس القوميّة اللبنانيّة، فجاء البناء ثقافة جماليّة لا تمتّ إلى الواقع بصلة، ولا يمكنها أن تتغيّر. والنموذج الثاني هو "أحمد مطر" وهو شاعر عراقيّ استشعر إخفاق المشاريع الوطنيّة في العالم العربي المعاصر، فجرى شعره نقدًا تهكميًا في هذا الإطار، وبذلك يكون قد نقد الانتماء على أساس المصالح المشتركة في العقد الاجتماعي بين المواطن والدولة دون أن يحاول تغيير البناء الثقافي للوطن. أمّا الإشكاليّة التي يحاول هذا البحث أن يدرسها فهي العلاقة بين تطوّر مفهوم الوطن وتطوّر حس الانتماء من جهة، والتعبير عن هذا الشعور أدبيًا ومدى انتشار هذا الأدب في المجتمع من جهة أخرى، ومدى تأثيره في المجتمع. ومن خلال دراسة شعر كلّ من "سعيد عقل" و"أحمد مطر" يفترض الباحث أنّه يمكن أن يصل إلى نتيجة تربط بين حس النهوض، والتعبير عن البناء، وتفجّر الشعور بالانتماء إلى وطن ما زال صورة في الخيال، وحس الإذلال وضياح الوطن الحقيقي في وجدان الأمة بعد أن خسرت شعور الانتماء من خلال التجارب العربيّة الفاشلة في بناء الأوطان.

Keywords

سعيد عقل, أحمد مطر, الوطن, الانتماء, Said Akel, Ahmad Matar, motherland, belonging.

1. المقدمة

نظر كل من الشعارين "سعيد عقل" وأحمد مطر" إلى الوطن نظرة مختلفة في نتاجهما الشعري. فالأول اللبناني رسم وطنًا غير متحقق عمليًا صاعه في خياله من خلال سفر تاريخي إلى المحطات المضيق المرتبطة بهذه البقعة الجغرافية التي ينتمي إليها، فرسم لبنانه الخاص من خلال أساطير الفينيقيين وبعض الأحداث التاريخية وبعض الأفكار العلمية التي صاغها أبناء هذه المنطقة قديمًا وحديثًا، دون أن يتطرق إلى النكبات الكثيرة التي أصابت هذه المنطقة.

أما أحمد مطر الشاعر العراقي فقد انطلق من وطنه الموجود، وراح ينقد مساوئ هذا الوطن في شعره أملاً في التخلص من هذه المساوئ وبناء وطن أفضل.

وقد أثر كلا الشعارين في المجتمعات المحيطة بهما تأثيرًا كبيرًا، وشكل كل منهما حالة لها فرادتها، وسماتها الأدبية. والإشكالية التي يطرحها هذا البحث تتلخص في تبيان نظرة كل منهما إلى الوطن، مع تلمس أسباب هذه النظرة، وفعاليتها في المجتمع. وقد جرى تقسيم البحث إلى مباحث أساسية هي مفهوم الوطن والانتماء ليُصار إلى تحديد المفاهيم والانطلاق منها والبناء على أساسها، ثم تناول الباحث صورة الوطن عند كل من سعيد عقل وأحمد مطر، وتأليًا أثر الشعارين في المجتمع، وخاتمة فيها الخلاصات والنتائج.

أما المنهج المعتمد فهو المنهج التقابلي للتمييز بين تجربة كل من الشعارين.

2. الانتماء إلى الوطن

إن مفهوم الوطن غير ثابت، إنما هو يتطور مع الزمن تماشيًا مع تطور فهم الإنسان لذاته وللمجتمع وللوجود. ولن نردّد ما قاله الشعراء قديمًا بشأن الوطن، إلا أنّ الجدير بالذكر هو إحساس الإنسان بهذا الانتماء الذي - على ما يبدو - لم يتغير كثيرًا من حيث الشعور أو من حيث الفروض التي تشكل علة له.

وإذا أردنا البحث في أشكال الانتماء قديمًا وجب على الباحث النظر في أسباب الحروب التي كانت تدور بين المجتمعات، فهذه تعكس مفهوم الانتماء، إذ لا يمكن أن يعرض إنسان حياته للخطر دون دافع، وهذا الدافع هو الذي صار اليوم يحمل اسم الانتماء. ولو دقق الباحث النظر في أسباب الحروب التي عرفتها القبائل العربية في الجاهلية لوجد أنها تتمحور حول السعي إلى البقاء، والتوق إلى الحفاظ على الوجود، وتأليًا الحفاظ على مستوى اقتصادي معين. ومن الأسباب الأساسية للحروب بين القبائل كان الجانب الاقتصادي، "فإذا أخلفت السماء وأمحلت الأرض، أكل بعضهم بعضًا" (خفاجي، 1973، ص 91 - 92) ومن ناحية أخرى كان للحرب في الجاهلية أسباب ثقافية تتمثل في الثأر "والنهضة لحماية الجار، والعصبية القبلية، والنفرة من العار، والاعتزاز بالقرابة الواشجة، والمفاخرة، والمنافرة، والإباء، والشمم". (خفاجي، 1973، ص 91 - 92)

بناء على ما تقدّم، يجد الباحث أنّ أسباب الصراع بين العرب في الجاهلية تنقسم قسمين: الأول اقتصادي، والثاني ثقافي. فالأسباب الاقتصادية تعكس رغبة الجماعة في الحفاظ على معاشها، ونظم إنتاجها. ففي المجتمع الرعوي العربي القديم كان أسلوب الإنتاج يعتمد على ما تهبه الطبيعة من كلاً وماء، لذلك، كان الصراع بين القبائل على هذين العنصرين الحيويين لاستمرارية البقاء. ومن هذا المنطلق ساد في الجاهلية مفهوم الذود عن الحياض، فتدافع القبيلة عن مكتسباتها الطبيعية التي تُعدّ أساليب إنتاج اقتصادي بالنسبة إليها.

أما القبائل التي كانت تعتمد التجارة في تأمين معاشها مثل قبيلة قريش، فقد أقامت تحالفات سياسية لتأمين طرق التجارة وتأمين استمرارية أساليب الإنتاج ونمط العيش، وهذا ما دفع الجاهليين إلى قتال المسلمين، فقد اصطدم أسلوب الحياة الإسلامية بأسلوب الحياة الجاهلية، فدافع الجاهليون عن أسلوب حياتهم ما استطاعوا. ولما تعاضم شأن المسلمين عدداً، وبنوا اقتصاداً فاعلاً، لم يتورّع الجاهليون عن الدخول في الإسلام أفعالاً يوم الفتح، إذ رأوا أنّ الأسلوب الجديد لن يلغي مكانة قريش الاقتصادية، فدخلوا في الإسلام عندئذٍ دون تردد.

فالانتماء يتشكل عملياً من أمرين متلازمين: عامل ثقافي تشترك فيه مجموعة بشرية، ونظام اقتصادي يكفل استمرار الفرد والجماعة في الحياة بشكل يرتضيه العرف العام السائد في المجتمع. ولا بدّ للباحث من توضيح مفهوم الانتماء للبناء على هذا الأساس لاحقاً.

2.1 مفهوم الانتماء

يمكن أن يعثر الباحث على تعريفات للانتماء، منها: "الانتماء هو الإحساس تجاه أمر معين، يبعث على الولاء له، والفخر به، والانتماء إليه". (النجار، 1411 هـ، ص 14). وهذا التعريف يركّز على الشعور بذاته، إلا أنه لا يتطرق إلى مسيئات هذا الشعور بوصفه نتيجة لدوافع معينة، لذلك يرى الباحث أنّ هذا التعريف غير جامع مانع. ومن التعريفات الأخرى: "الانتماء حاجة من الحاجات الهامة التي تشعر الفرد بالروابط المشتركة بينه وبين أفراد مجتمعه، وتقوية شعوره بالانتماء للوطن، وتوجيهه توجيهًا يجعله يفخر بالانتماء، ويتفاني في حبّ وطنه، ويضحّي من أجله". (ال مبارك، 1427 هـ، ص 23). وهذا التعريف كذلك يقف عند حدود الشعور فحسب. ويرى بدوي أنّ الانتماء "هو ارتباط الفرد بجماعة، يسعى إلى أن تكون عادة جماعة قوية، يتقمّص شخصيتها، ويوحّد نفسه بها (كالأسرة، والنادي، والشركة...) وهو مرتبط بالولاء، [...] وتستخدم هذه الكلمة للدلالة على العلاقات والعواطف التي تربط الفرد بالجماعة أو رموزها، أو الإخلاص لما يعتقد الفرد أنّه صواب (كالأسرة، والعمل، والوطن)". (بدوي، 1982، ص 137).

يرى الباحث أنّ هذا الكلام قد بدأ يجمع في تعريف الانتماء بين الشعور ومسيئاته، فاشتراط أن ينتمي الإنسان إلى ما يعتقد أنّه صواب، ثم أعطى أمثلة للأسرة والعمل والوطن. فالمرء في الأسرة مستفيد لأنها تؤمن له الرعاية، وهو مشارك في هذه العملية، فالفرد يخدم أفراد الأسرة، والأسرة تخدم الفرد، فتتأمن المصالح المشتركة سواء أكانت نفسية أو اقتصادية، ولا يغيب عن بال "بدوي" الجانب الثقافي كذلك، فيجب أن يكون المرء عضواً في الجماعة، وهذا الأمر يفرض عليه علاقة ثقافية بل تمازجاً ثقافياً مع الجماعة.

ومن المصطلحات التي ذكرها الباحثون مصطلح الولاء، وهو "حالة دمج بين الذات الفردية في ذات أوسع منها ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو جماعة أو أمة". (نجيب، 1990، ص 391). وهذا التعريف يعمّم الدمج دون أن يوضّح علته، لذلك يكتفاه الغموض. وهناك من وضع مصطلحاً آخر وهو "نواثر الانتماء" وهي مجموعة من البشر، يشملهم وضع اجتماعي لوصف يتصفون به بالتشابه فيما بينهم، ويكون هذا الوصف ذا فاعلية اجتماعية، أي يشكل لمن يتصف به مركزاً اجتماعياً يتعامل به ويؤثر في حقوقه واجباته الفردية والجماعية، مما يوجد صالحاً مشتركاً بين من يشملهم، وينتج وعياً ثقافياً الانتساب إليه، ويحرّك بواعث الدفاع عن وجوده". (البشري، 2013، ص 21).

ويمكن الباحث أن يعتمد هذا التعريف الذي يحمل في طياته توصيفاً لعل الانتماء، فهما اثنتان: تشاكل ثقافي مع الجماعة، ومصالح مشتركة ضمن نظام يكفل استمرارية الأفراد ضمن الجماعة وتحسين أحوالهم.

وعلى الباحث أن يدرس مفهوم الوطن، لأنّ اهتمامات هذا البحث تنصبّ على الانتماء إلى الوطن، وليس على الانتماء بحدّ ذاته.

2.2 مفهوم الوطن وإشكالية الهوية

لم تعرف الشعوب القديمة الوطن كما نعرفه نحن اليوم، ولن يبقى مفهوم الوطن على ما هو عليه في المستقبل، فكما تطوّر في الماضي مع تطوّر أساليب العيش، فإنّ هذا المفهوم سوف يتطوّر في المستقبل لأسباب نفسها، وقد نرى أوطاناً هي عبارة عن شركات كبرى. أمّا اليوم، فهو "كيان إقليمي للاستفادة من التماسك الجغرافي أو التاريخي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، في إطار التخطيط المكاني" (Larousse) والبلد هو "مساحة التماسك، بوصفه مجموعة من الوحدات المكانية المترابطة، التي يكون فيها مجموع قوى التماسك الداخلية أكبر من مجموع القوى التبددية، الداخلية و / أو الخارجية". (Rolland-Mau, et autre, 1996, p. 247)

فالوطن كيان تجتمع فيه مجموعة بشرية على تشترك في الأنظمة الثقافية أصلاً (روسو، 2013، ص 35)، وتتضوي في نظام اقتصادي يؤمن مصالح الجميع، وينظّم العلاقات بينهم وبين الغير، ويكون لكل فرد فيه حقوق معلومة وواجبات معلومة (عبد التواب، 1993، ص 116)، الأمر الذي يؤمّن استمرارية الجماعة وتقدّمها.

والانتماء إلى الوطن (عبد التواب، 1993، ص 116) يحمل مفهوم الوطنية، وهي "حب الوطن، والشعور بارتباط باطني نحوه". (الحصري، 1985، ص 9). وهي "مشاعر عاطفية ووجدانية تتكوّن عند الفرد تجاه الوطن أو الأرض التي يحبّها". (فخرو، 2005، ص 71). وهذه العاطفة الوجدانية لا تتشكل إلا إذا توافر عنصران يربطان الفرد بالجماعة في مكان معيّن، وهما: الثقافة المشتركة، والمصالح المشتركة. أمّا الانتماء إلى الوطن فينتج منه مفهوم الهوية، وهي "حالة استقلال الذات والانتماء إلى الشيء، وهي أيضاً حالة الشيء كونه متميزاً. وتعدّ مطلباً أساسياً لكل البشر، وتحديدتها واجباً حتمياً، يقع جزئياً على عاتق المسؤولين عن مهمة ضبطها وتوجيهها على اعتبار أن شكل الهوية ومضمونها من الواجبات التي لا يمكن تجاهلها أو التخلي عنها". (احمد، 2003، ص 164-165). والهوية تحمل بعداً ثقافياً واضحاً، فهي "تبدأ بالنمو والتطور خلال التاريخ الشخصي للفرد بما يتوافر له من "تدريبات أساسية لضبط السلوك، وإشباع الحاجات وفقاً لتحديدات اللغة والعادات والمعايير والأدوار في إطار المنظومة الثقافية للمجتمع. وهذه الالتزامات تفرضها المؤسسات الاجتماعية على الفرد، وعليه إيجاد حلول لها بطريقة إيجابية. (أبو جادو، 1998، ص 20). ويسهم المجتمع في "تطوير نمو الأنا ومساعدة الأفراد كي يجدوا الأدوار المناسبة داخل النظام الثقافي، الذي يواجه الفرد دائماً بقيم متضادة، لأن التأثيرات الاجتماعية ليست دائماً ناعمة، والقيم التي يؤكدّها المجتمع تختلف بين الثقافات، والثقافة التي تشهد تصارعاً تؤثر كثيراً في ضعف تكوين الهوية". (عبد الرحمن، 2001، ص 159).

أمّا الأنظمة السياسية القائمة في الدول العربية فإنّها تطرح إشكالية على مستوى الهوية والانتماء، ويعود ذلك للخلل الحاصل في إرساء ثقافة مشتركة بين الأفراد ضمن الدولة من جهة، والخلل في ميزان الحقوق والواجبات الذي سببه هيمنة فئة متسلّطة على الدول بشكل عام - كما يرى بعض الشعراء - والسلب من المال العام، وعدم انصياع أهل السلطة للقوانين وعدم تطبيق دساتير هذه الدول، الأمر الذي نجم عنه خلل في العقد الاجتماعي بين الشعب والدولة.

ومن الشعراء الذين تناولوا هذا الموضوع "سعيد عقل" و"أحمد مطر" كلّ من زاويته الخاصة.

3 آراء الشعراء في الوطن

3.1 الوطن عند سعيد عقل

سعيد عقل (4 تموز 1912 - 28 تشرين الثاني 2014) من أبرز الشعراء اللبنانيين المعاصرين. عمل في التعليم والصحافة. ولد في زحلة، وقد تميّز شعره بالتجديد. ويُعدّ من أكبر دعاة القومية اللبنانية، وقد ساهم بشكل كبير في تأطير فكرها، وفي سنة 1972م كان من مؤسسي حزب "التجدد اللبناني"، كما كان يعدّ الأب الروحي لحزب حراس الأرز الذي يتزعمه إتيان صقر.

يؤخذ عليه تأييده لقضاء إسرائيل على الوجود الفلسطيني في لبنان عبر تأييده الهجوم الإسرائيلي على لبنان عام 1982، نكابة بالوجود العسكري الفلسطيني المسلح على أرضيه.

وصاغ سعيد عقل شعره انطلاقاً من قناعاته بلبنان كما يراه، فهو كيان ثقافي متميز، له جذور فينيقية، وخدم الدول العربية التي تعاقبت على حكمه تاريخياً من خلال أبنائه. إلا أنّ الشاعر، في شعره نثره، يرسم وطناً غير متحقّق عملياً، يرسم وطناً كما أراده أن يكون لا كما هو بالفعل. يقول سعيد عقل في كتابه "لبنان إن حكى": "كلّ شيء هنا، أكبر من بحر، أكبر من دهر. مجلّات ضخمة من التاريخ ستظلّ تنتظر من يؤلفها. وهذه الرقعة من الشيطان والربى إنّما أقيمت عليها مؤسسات لا يتمنّ فضلها. كانت الأولى، وكأنّما في البدء كانت. من أرض هي، وأحياناً من أفراد لهت أصابعهم بالمعمور. هنا وُلد أو قال أو عمل نفر من آلهة المعرفة.

التطواف في هذه الصخور أو تلك التلال ليشيلن بك إلى النجوم أو يملكك الدنيا في لحظات. تحت كل حصة من الثرى الذي تدوس كل يوم، قصة مجد تُحكى. إنها فصل من تاريخ الحب والعتاء، أو هي بعض حضارة". (عقل، 1991 "ب"، ص 10).

يرسم سعيد عقل للبنان صورة شعرية مثالية، فهو كبير القدر رغم صغر مساحته، والدليل منجزات شعبه التي نقشوها في وجه القدر بدءاً من الفينيقيين وصولاً إلى أيامنا هذه، لذلك، جهد الشاعر في هذا الكتاب النثري أن يجمع ما أضاء من تاريخ الأساطير الفينيقية والعلم والحرب وغيرها، فجمعها تحت هذا العنوان.

وسعيد عقل إنمّا أطر في عمله هذا لثقافة لبنانية تدعم القومية اللبنانية بل تشكلها، فكان الأب الروحي لهذه القومية في الأدب. صاغ تاريخاً مجيداً ليجتمع حوله اللبنانيون، فأسس ثقافة لبنانية خالصة، من مميزات أنها لا تتقاطع مع العالم العربي الذي يظل مجاوراً، ومحبوباً شرط ألا يمتزج مع الهوية اللبنانية بوشائج قري ثقافية، حسب سعيد عقل، الذي يرفض أن يكون بلده جزءاً من العالم العربي. ومن المنظرين في ميدان الفلسفة الذين تبنا هذه الفكرة ولو بشكل نسبي بداية، نذكر الدكتور كمال يوسف الحاج (طرابلسي، 2006، ص 271) الذي كان متوافقاً مع الشاعر في توجيهه هذا.

ولبنان سعيد عقل جميل بيد أنه لا يمكن أن يتحقق. ولم يتناول سعيد عقل في نتاجه الأدبي الجانب الاقتصادي، أو النظام السائد في الوطن، أو منظومة الحقوق والواجبات، إمّا لعدّها متحققة سلفاً بالنسبة إلى اللبناني المثالي الذي يرسمه، وإمّا لأنّ الواقع الذي يعيشه عقل كان مقبولاً من هذه الناحية ولا سيّما أنّه أنتج رصيده الأدبي خلال فترة ازدهار اقتصادي عرفها المجتمع اللبناني.

واللافت أنّ هذه الصورة الجميلة التي رسمها عقل والتيارات اليمينية في لبنان إبان الحرب الأهلية وما قبلها، لم تكن مقبولة من فئة أخرى من المجتمع اللبناني، ولا سيّما المسلمون الذين رأوا أنّ لبنان بلد عربي، وتربطه بالدول العربية لغة مشتركة، وأصول عرقية مشتركة، وتاريخ واحد، ومصير مشترك (حلاق، 1993).

ويقول سعيد عقل: [مجزوء المتقارب]

أنا ابن الدهور، ابن لبنا	ن وعي الخليفة بي
أنا جيت ذاتي وأفرغ	ث أغنية المطلب
نهلت الذهول، نهلت	شحب الفتى المتعب
وصمت المساء يلف الـ	يتيم وقبر الأب
نهلت الشقاء المهلّ	جميلاً كوجه نبي
أنا ثروة كالكبـ	ة عمقاً وكالغيب
غنيّ أحسن الوجود	غباراً على ملعبي

(عقل، 1991 "أ"، ص 10 - 13)

ويلمح الباحث في هذه القصيدة نرجسية لافتة أفرغها الشاعر في لبنان من ذاته، فغدا متوحدًا مع الوطن في ملعب النرجسية حيث يرى أنّ الوجود يتمحور حوله وحول بلده فقط. ونظرة كذلك تبدو جميلة ولكنها لن تكون حقيقية إلا في وجدان الشاعر ولا يمكن تطبيقها على أرض الواقع لأنّها ترسم تاريخاً جميلاً على حساب تاريخ حقيقي تمّ إلغاؤه، ولا تعطي شيئاً من مقومات الوطن الحقيقية ثقافياً وفي النظم الاقتصادية والمصالح المشتركة.

ويقول الشاعر: [البيسيط]

قصيدة لبنان

من أين؟ يا ذا الذي استسّمته أغصان،	من أين أنت؟ فدالك السرور والبان
إن كنت من غير أهلي لا تمر بنا	أو لا، فما ضاق بابن الجار جيران
ومن أنا؟ لا تسأل، سمراء منبها	في ملتقى ما التقت شمس وشطان
لي صخرة علفت بالنجم أسكنها	طارث بها الكئيب قالت: تلك لبنا!
تورّع عنها هموم المجد فهي هوى	وكرّ العفابين تربى فيه عفبان
أهلي، ويغولون، يغدو المؤث لعبتهم	إذا تطلع صوب السفح غدوان
من حفنة وشذا أرز كفايتهم	رؤودهم إن تقل الأرض أوطان
هنا على شاطي أو فوق عند ربي	تفتح الفكر، قلت: الفكر نيسان
دنيا إلى نقطة شدت وما هركت	دماً، ألا إن خلق الحر سلطان
كنا ونبقى لأننا المؤمنون به	وبعد فليسع الأبطال ميدان

(عقل، 1991 "أ"، ص 7 - 9)

لبنان بالنسبة إلى سعيد عقل قصيدة جميلة، صخرة يتحطم عليها الأعداء، أرض تستمدّ تفردها من الإنسان الذي يعيش عليها (زودهم إن تقل الأرض أوطان)، والأرض هي التي تعطي تفرّد الإنسان وسط التنوع الهائل في الأرض، فترفع أبناءها فوق مستوى البشر (من حفنة وشذا أرز كفايتهم)، أما التمايز فهو فكري مرتبط بالأرض (هنا... تفتح الفكر)، ومن ناحية أخرى فإن التمايز يكون في البطولة أيضاً (وكر العفابين تربى فيه عفبان). وترتفع النرجسية عند سعيد عقل التي توحد بين الأنا والوطن إلى أعلى مستوى آخر القصيدة (دنيا إلى نقطة شدت) (وبعد فليسع الأبطال ميدان). فلبنان مركز الوجود، منه ينطلق، وإليه يعود.

وكما سبق أن أسلفنا، فإن سعيد عقل يهب لبنان صورة جميلة، غير أنّها غير متحققة في الواقع، ولا يمكن لها أن تتحقق. ويبدو أنّ سعيد عقل المسيحي يحتاج إلى وطن لأنّ المسيحية ليست وطناً إنّما هي دين فقط، فالمسيحية معتقد إلهي تنزهي، ولكنها تفتقد إلى التنظيم المادي، فيمكن أن ينتمي الإنسان إليها إلا أنّها لا تشكل وطناً. ومن هنا، جاء بحثه عن وطن

على شاكلة المسيح في ناسوتيته (شنودة، 1995، ص 34) فجعل لبنان كاملاً مثله، ولعله يرى المسيح في أنه فيوحد بين الابن في المعتقد المسيحي والوطن الذي هو لبنان، وذاته الخاصة. ويقول: [الرمل]

أنا لست الغرد الفرد، إذا قال طاب الجرح في شجو الحمام
أنا حسبي أنني من جيل هو بين الله والأرض كلام
قمم كالشمس في قسمتها تلد النور وتعطيه الأنام

(عقل، 1991 "أ"، ص 84).

من خلال الأبيات التي أوردها الباحث، يتبين أن عقل يعطي الفضل للوطن الذي يهبه أنه، وهذا الوطن كلام بين الله والأرض، فلم يعد أرضاً عادية إنما صارت تشاكل المسيح وتجمع بين طبيعتين: اللاهوت والناسوت، وهي كلمة الله على الأرض، فلبنان لوجوس بين الدول، لذلك كانت النتيجة أن قمم لبنان أنت دور مريم العذراء في المعتقد المسيحي، فولدت الناسوت الذي هو نور العالم، وقمم لبنان تلد النور وتعطيه لكل الناس دون تمييز.

ولو تابع الباحث مسيرة سعيد عقل في السياسة، لوجد أنه عمل ما لا يؤمن به: فقد كان قريباً جداً من إتيان صقر الذي أسس ميليشيا مسلحة باسم حراس الأرز، وهذه الميليشيا حاولت الدفاع عن القومية اللبنانية بنسختها المارونية قبيل الحرب الأهلية في لبنان (1975 - 1990) وخلالها، ولا يغيب عن البال أن هذا الفريق تعامل مع العدو الإسرائيلي، وبارك هجومه على لبنان عام 1982 ليجتث الفلسطينيين الموجودين على أرضه، ولا سيما سلاحهم. فلو كان سعيد عقل أميناً لفكره لما قبل بالتعامل مع أحد، ولا سيما إسرائيل.

3.1.1. أثر صورة الوطن عند سعيد عقل في المجتمع اللبناني

لا يمكن أن تؤثر نظرة سعيد عقل في المجتمع اللبناني بكامله؛ لأنه متنوع طائفيًا، فلبنان ليس مجموعة متجانسة من المسيحيين فقط، بل هو مزيج من المسيحيين والمسلمين. لذلك، فإن الأثر هذا انحصر في المجموع المسيحية فقط، وهي تشكل أقلية بالنسبة إلى العالم العربي، وتشكل نصف السكان في لبنان. ومن الآثار التي أنتجها فكره أنه أسس حزبًا، ومن ثم ميليشيا خلال الحرب الأهلية كما سبق أن أسلفنا. أما من الناحية الفنية فقد طال تأثيره مجمل اللبنانيين لا سيما أن بعض قصائده قد تحولت إلى أغنيات غدت أناشيد وطنية على كل لسان بعد أن صدحت بها حنجرة السيدة "فيروز"، ومنها على سبيل المثال: "قصيدة لبنان" و"ردني إلى بلادي"، الأمر الذي أسهم إيجابيًا في تنمية الحس القومي اللبناني بوصف لبنان كيانًا مستقلًا، وتنمية الانتماء إلى هذا الكيان الذي تأسس عام 1920 بعد أن أعلن الجنرال غورو دولة لبنان الكبير. ويفتقر الباحث حقيقة إلى إحصاءات حقيقية ليطمئن من الحكم على مدى انتشار نتاج سعيد عقل بين الناس، بيد أنه يمكن القول إن أغنية مثل "قصيدة لبنان" لفيروز، وبألحان الأخوين رحباني قد انتشرت انتشارًا عظيمًا في المجتمع.

3.2. الوطن عند أحمد مطر

أحمد مطر شاعر عراقي ولد سنة 1954 في قرية التنومة، في نواحي شط العرب في البصرة، وهو الابن الرابع بين عشرة أخوة من البنين والبنات، وعاش فيها مرحلة الطفولة قبل أن تنتقل أسرته، وهو في مرحلة الصبا، لتقيم بمسكن عبر النهر في محلة الأصمعي. في سن الرابعة عشرة بدأ أحمد مطر ينظم الشعر، ولم تخرج قصائده الأولى عن نطاق الغزل والرومانسية. وبسبب قسوة الحياة والظروف القاهرة التي كان يعيشها مطر، تعثر في دراسته، ولأنه أحبط لجأ إلى الكتاب هربًا من واقعه، فزوده برصيد لغوي انساب زادا لموهبته، وأضافت لزاده هذا تلك الأحداث السياسية التي كان يمر به وطنه، وهو أمر جعله يلقي بنفسه في دائرة السياسة مرغمًا، بعد أن وجد أن الغزل، والمواليد النبوية، لا ترضى همته، فراح يتناول موضوعات تنطوي على تحريض واستنهاض لهمم الناس للخلاص من واقعهم المر، ففنى إلى الكويت. وهناك، عمل في جريدة القبس محررًا ثقافيًا، وعمل أيضاً أستاذًا للصفوف الابتدائية في مدرسة خاصة، وكان آنذاك في منتصف العشرينات من عمره، حيث مضى يُدون قصائده التي أخذ نفسه بالشدة من أجل ألا تتعدى موضوعاً واحداً، وإن جاءت القصيدة كلها في بيت واحد. وراح يكتنز هذه القصائد وكأنه يدون يومياته في مفكرته الشخصية، لكنها سرعان ما أخذت طريقها إلى النشر، فكانت "القبس" الثغرة التي أخرج منها رأسه، وباركت انطلاقته الشعرية الانتحارية، وسجلت لافتاته دون خوف، وساهمت في نشرها بين القراء. وفي رحاب القبس عمل الشاعر مع الفنان ناجي العلي، ليجد كل منهما في الآخر توافقاً نفسياً واضحاً، فقد كان كلاهما يعرف -غيبًا- أن الآخر يكره ما يكره ويحب ما يحب، وكثيراً ما كانا يتوافقان في التعبير عن قضية واحدة دون اتفاق مسبق. ومرة أخرى تكررت مأساة الشاعر، حيث إن لهجته الصادقة، وكلماته الحادة، ولافتاته الصريحة، أثارت حفيظة مختلف السلطات العربية، تماماً مثلما أثارتها ريشة ناجي العلي، الأمر الذي أدى إلى صدور قرار بنفيهما معاً من الكويت، حيث ترافق الاثنان من منفى إلى منفى. وفي لندن فقد أحمد مطر صاحبه الذي اغتيل، ليظل بعده نصف بيت، وعزائه أن ناجي ما زال معه نصف حي، لينتقم من قوى الشر بقلمه. (راجع: مطر، 2011، ص 3)

أحمد مطر يدين بالإسلام، ولا يهجم الباحث إن كان متأثر -قليلاً أو كثيراً- بالفكر الماركسي، إلا أن شعره ينطق بخلفية إسلامية واضحة، إذ إن الاقتباسات من القرآن الكريم منتشرة في قصائده. فيقول على سبيل المثال في قصيدته "قلة أدب":
قرأت في القرآن:

"تبت يدا أبي لهب"
فأعلنت وسائل الإذعان:

"إنّ السكوت من ذهب".

أحببت فقري.. لم أزل أتلو:

"وتب

ما أغنى عنه ماله وما كسب"

فصودرت حنجرتي

بجرم قلّة الأدب.

وصودر القرآن

لأنّه حرّضني على الشغب! (مطر، 2011، ص 13).

وبعكس سعيد عقل، لا يؤطّر أحمد مطر للوطن ثقافياً، فهو لا يبحث عن قوميّة غير متحقّقة في مواجهة الآخر، إنّما ينتقد الأداء الحكومي في الدول العربيّة ولا سيّما في بلده العراق. إنّما يجهد الشاعر في نقد النظام السائد، فهو يراه لا يحقّق المصالح المشتركة للفرد ضمن الدولة، لذلك هناك خلل من وجهة نظره في العقد الاجتماعيّ الذي يؤسس الدولة. فراح ينتقد أداء الأنظمة، ولا سيّما طرق المخابرات، وأساليب التعذيب، وقمع الحريّات بأسلوب ساخر ومؤلم. يقول في قصيدته "طبيعة صامتة":

في مقلب القمامة

رأيت جثة لها ملامح الأعراب

تجمّعت حولها النسور والدياب

وفوقها علامة

تقول: هذي جيفة

كانت تُسمّى سابقاً... كرامة! (مطر، 2011، ص 12).

لا يعاني أحمد مطر من مشكلة الهوية أو القوميّة، فهو من العرب، يشترك معهم في التاريخ والثقافة والدين واللغة والعادات والتقاليد، إلا أنّه يشكو ما وصلت إليه حال العربي في بلده بسبب الأنظمة العربيّة التي سلبت من المواطن كرامته، فراح ينتقد هذه الأوضاع في قصائده، فيتحسّر على موت العرب ويقصد إمكانيّة استمرارية المواطن العربي، وتقّدّمه، ليبلغ ما يصبو إليه من عدالة فيحقّق الفاعليّة في الحضارة الإنسانيّة. فيقول معلّقاً على مفهوم الوطن أنّه الشعب الذي يعيش بكرامة، وليس مكاناً لاستعباد الناس، في قصيدته بعنوان: "فليسقط الوطن".

فليسقط الوطن

... نحن الوطن!

من بعدنا تبقى الدواب والدمن.

نحن الوطن!

إن لم يكن بنا كريماً آمناً

ولم يكن محترماً

ولم يكن حرّاً

فلا عشنا... ولا عاش الوطن! (مطر، 2011، ص 128).

لكنّ هذا لا يعني أنّه يكره الوطن الذي أسسه عقد اجتماعيّ للشعب جمع أطيافه، فارتضوا أن يعيشوا تحت راية هذا الوطن. ومما يشير إلى أنّه يحبّ وطنه المتجذّر ثقافياً في وجدان الأمة قوله:

أحبك

يا وطني

ضقت على ملامحي

فصرت في قلبي

وكنت لي عقوبة

وإنّني لم أقرّف سواك من ذنبي!

لعنّتي..

واسمك كان سبّي في لغة السب!

ضربتني

وكنت أنت ضاربي.. وموضع الضرب!

طردتني

فكنت أنت خطوتي

وكنت لي دربي!

وعندما صلبتني

أصبحت في حبي

معجزةً
حين هوى قلبي .. فدى قلبي!
يا قاتلي
سامحك الله على صلبي
يا قاتلي
كفاك أن تقتلني
من شدة الحب! (مطر، 2011، ص 28).

المشكلة التي يطرحها هي المفارقة في وظيفة الوطن، فبدلاً من أن يكون ملاذًا للمواطن، ومكاناً يجد فيه ذاته، ويحقق فيه طموحه، غداً وطنه قاتله، ولكنه برغم ذلك يريد إصلاحه من خلال إصلاح نظامه، ولا يريد استبداله بوطن آخر أو إلغاءه. والمشكلة الأساسية التي يعاني منها المواطن العربي من وجهة نظره هي فساد الحكام الذين لم يتورعوا عن فعل أي شيء لاستغلال الشعب، ولا سيما اقتصادياً. فيقول تحت عنوان "أعوذ بالله":

شيطان شعري زارني
فجئن إذ رأني
أطبع في ذاكرتي ذاكرة النسيان
وأعلن الطلاق بين لهجتي ولهجتي
وأنصح الكتمان بالكتمان!
قلت له: كفاك يا شيطاني
فإن ما لقينته ككفاني
إياك أن تحفر لي مقبرتي
بمعول الأوزان.
فأطرق الشيطان
ثم اندفعت في صدره
حرارة الإيمان
وقبل أن يرحي لي قصيدتي
خطأ على قريحتي:
أعوذ بالله من السلطان! (مطر، 2011، ص 28).

ويرى الباحث أن أحمد مطر يصل في قصيدته "حالة خاصة" إلى المطالبة جهاراً بتغيير النظام السائد في بلده، فهذا النظام يُعدّ أصل المشكلة التي يعاني منها المواطن العربي ويجعله متخلفاً. يقول:

نعم، أنا حطامٌ
جلد على عظامٌ
لا، لم أعدب أبداً.
لا، ليس بي سقامٌ
لا، لست في صيامٌ.
لا، إنني أنامٌ.
لا، لست أشكو مطلقاً
من شدة الغرام.
لا، حال الجيب على أحسن ما يُرام.
لا تتعبوا يا سادتي
في فهم معنى حالتي
مختصر الكلام:
إنني إذا ما خطر الحاكم لي
لا أشتهي الطعام!
هذا نظام مَعْدتي
ولن يعيد صحتي
إلا طبيب حاذقٌ
يفهم في نظامها
... فيقلبُ النظام! (مطر، 2011، ص 159).

ولا يعفي أحمد مطر المواطن العربي من مسؤولياته تجاه ما يحصل في بلده، وبلاد العرب بشكل عام، فالمواطن خامل غير منتج، ولهذا السبب توقفت الأمة عن التطور والرفق، وأصاب الرزايا الناس جميعاً، يقول في قصيدته "قومي احبلي ثانية" مخاطباً الأرض العربية:

فصبحنا ببعاء
قويتنا موميا
ذكينا بيشمت فيه الغباء
ووضعنا.. يضحك منه البكاء!
تسممت أنفاسنا
حتى نسينا الهواء
وامتزج الخزي بنا
حتى كرنا الحياء.
يا أرضنا.. يا مهبط الأنبياء
قد كان يكفي واحد
لو لم تكن أغبياء!
يا أرضنا ضاع رجاء الرجاء
فيها، ومات الإباء
يا أرضنا لا تطلبي من ذنبا كبرياء
قومي احبلي ثانية
وكشفي عن رجل
لهؤلاء النساء! (مطر، 2011، ص 31).

ففي هذه القصيدة يراه الباحث بحث المواطن على الإبداع الذي بات غائباً في هذه الأمة، والنهضة حتماً تحتاج إلى الإبداع. وليس غيابه نابغاً من عدم وجود أرضية ثقافية لهذه الأمة، وإنما بسبب الخلل الهائل الحاصل بين الحاكم والرعية، بين النظام في الدولة الذي يستغل المواطنين، والمواطن الذي بات لا حول له ولا قوة. فصدحت حنجره الشاعر في قصيدة "أين المفر؟" بوصف فيها حال المواطن العربي في ظل الأنظمة السائدة في هذه الدول، يقول:

المرء في أوطاننا
معتقل في جلده
منذ الصغر.
وتحت كل قطرة من دمه
مختبئ كلب أثر.
بصماته لها صور
أنفاسه لها صور
أحلامه لها صور
المرء في أوطاننا
ليس سوى إضبارة
غلافها جلد بشر. (مطر، 2011، ص 43).

3.2.1 أثر أحمد مطر في المجتمع العربي

من البديهي أن تنتشر قصائد أحمد مطر لأسباب عديدة، فهي قصيرة تتناول موضوعاً واحداً، وبعد انتشار وسائل التواصل الإلكترونية وجدت مساحة رحبة للانتشار لأنها تناسب هذه التقنيات الجديدة لقصرها، وتكثيف المعاني، واقتصارها على موضوع واحد. ولا يخفى على الباحث أن المتلقي اليوم مستهلك سريع، لا يمضغ جيداً، وهذا النمط من القصائد مناسب لهذا العصر. ولما نشرها الشاعر إنما نشرها في افتتاحية "القيس"، وهي جريدة تصل إلى الناس جميعاً.

أما الموضوعات التي طرحها فإنها تحكي حال الأمة بحق، لذلك تفاعل معها المتلقون إذ وجدوا أنها تعبر عن واقعهم، بأسلوب ساخر. ورأى المتلقي بشكل عام أن أحمد مطر يقول ما لا يجرؤ على قوله أي أحد، فجرى التنقيص عن الغضب من طريق الإقبال على هذه القصائد.

ولا يستطيع الباحث أن يحدد مدى انتشار أعمال الشاعر لأنّ آليات الإحصاء في العالم العربي لهذا النوع من المواد متعذر، فما من معلومات يمكن العودة إليها. ولكن انتشارها عبر وسائل التواصل الاجتماعية اليوم يظهر مدى إقبال الناس عليها رغم مرور زمن لا بأس به منذ صدور أول مرة، إلا أن الأنظمة العربية لم تتغير، وما زال المواطن العربي يعاني من منهج قمعي وأسلوب مخابراتي يعيش في ظله في كل مكان: في الوطن، في العمل، في المنزل، في المجتمع....

4. الخلاصة

- يمكن أن يخلص البحث إلى النتائج الآتية:
- الانتماء إلى الوطن يقوم على ركيزتين أساسيتين: الثقافة المشتركة، والمصالح المشتركة التي تؤمن حياة الفرد وحياة الجماعة.
- سعيد عقل حاول تعديل الثقافة المشتركة للمجتمع اللبناني، إلا أن أعماله ظلت نتاجاً جمالياً في برج عاجي، ولم تفلح في تعديل ثقافة المجتمع رغم انتشارها.
- أحمد مطر حاول أن يعدل الأنظمة في الدول العربية لتصويب العلاقة بين المواطن والدولة، إلا أن تجربته فشلت رغم انتشار أعماله الشعرية في المجتمع بسبب الفساد المستشري في الأنظمة العربية، وقدرة هذه الأنظمة على الاستمرارية بما تملكه من سلطة مطلقة. ورغم تغير طال بعض الأنظمة العربية في الشكل، إلا أنه لم يغير من الجوهر شيئاً، فلم تتحول هذه الأنظمة من القمع إلى منح الحريات، ومن الظلم إلى العدل.
- الشعر يحمل فكرة ويمكن أن تصل هذه الفكرة إلى المتلقي، إلا أن الفكرة وحدها لا تكفي، بل تحتاج إلى آليات لتصبح ماثلة في المجتمع وفاعلة، وقادرة على التغيير، إلا أن هذه الأنظمة السائدة في الدول العربية لا تسمح بنشوء أنظمة معارضة إلا في الشكل، وهي متحالفة مع أصحاب رؤوس الأموال الكبار الذين يسيطرون مع النظام على المجتمع كله.

المصادر والمراجع

- أبو جادو، صالح محمد (1998)، *سيكولوجية التنشئة الاجتماعية*، عمان: دار المسيرة للنشر.
- أحمد، حافظ. (2003)، *التربية وقضايا المجتمع المعاصر*، القاهرة - مصر: عالم الكتب.
- آل مبارك، عبد الله بن ناجي. (الخميس 18 ذي القعدة 1427 هـ). قراءة في مفهوم الانتماء الوطني، في *صحيفة الرياض*، الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية.
- بدوي، أحمد زكي. (1982). *معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية*، بيروت: مكتبة لبنان. ط 2.
- البشري، طارق. (2013)، *مفهوم الانتماء ودوائره المتحاذية*، في كتاب: *دوائر الانتماء وتأسيس الهوية*، القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم. ص 21 - 29.
- الحصري، ساطع. (1985). *آراء وأحاديث في الوطنية والقومية العربية*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2.
- حلاق، حسان. (1993)، *لبنان من الفينيقية إلى لعروبية*، بيروت: الدار الجامعية.
- خفاجي، محمد عبد المنعم. (1973)، *الشعر الجاهلي*، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط 2.
- روسو، جان جاك. (2013)، *العقد الاجتماعي*، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- شنودة الثالث. (1995). *طبيعة المسيح*، القاهرة: د. ن. ط 5.
- طرابيشي، جورج. (2006)، *معجم الفلاسفة*، بيروت، لبنان: دار الطليعة، ط 3.
- عبد التواب، عبد الله. (1993). *دور كليات التربية في تأسيس الولاء الوطني*. مجلة *دراسات تربوية*، القاهرة: المركز القومي للمناهج والبحث التربوي. 8 (56). ص. ص. 30 - 56.
- عبد الرحمن، محمد السيد. (2001)، *نظريات النمو، علم نفس النمو المتقدم*، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- عقل، سعيد. (1991 "أ"). *كما الأعمدة*، بيروت: نوبليس، ط 2.
- عقل، سعيد. (1991 "ب"). *لبنان إن حكى*، بيروت: نوبليس، ط 2.
- عقل، سعيد. (1991 "ج"). *دلزي*، بيروت: نوبليس، ط 2.
- مطر، أحمد. (2011)، *المجموعة الشعرية*، بيروت: دار الحرية.
- النجار، عبد الله. (1411 هـ). *الانتماء في ظل التشريع الإسلامي*. القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة.
- نجيب، زكي. (1990)، *قيم من التراث*، بيروت: دار الشروق.
- Rolland-May, C., & Prosic, M. (1996). Contribution à la définition du concept de «pays»: application au «pays barrois». *Revue Géographique de l'Est*, 36(3), 243-277
- LAROUSSE. (n.d.). *Dictionnaires Français*. Retrieved from www.larousse.fr.